الحيوان الناطق والحيوان الاعجم

لو سُئل سياسيٌّ ما المسألة الشاغلة لالباب اهل السياسة في هذا الزمان لاجابك على الفور المسألة الشرقيَّة أما ترى ان كل جريدة سياسية تتصفحها تتضمن بحثًا في قضية من قضاياها الأصليَّة او الفرعيَّة . ولو سُئل عالم من ابناء هذا الزمان ما المسألة الكبرى الشاغلة لالباب اهل العلم الآن لاجابك على الفور مسألة الارتقاء وتحوُّل الانسان عمَّا دونهُ من الحيوان ألا ترى ان كل جريدة علميَّة تتصفحها تتضمَّن بحثًا في قضاياها الاصليَّة او الفرعيَّة . على ان حقيقة هذه المسألة قد تجلَّت لجمهور العلماء ولم يبقَ من يخالف فيها الاَّ القليل وقد وافقهم كثيرون من الفلاسفة وعلماء الاديان على ان الارتقاء سنَّة الكون وان الاحياء متسلسلة وتتحول بعضها عن بعض وان الحيوان الناطق (اي الانسان) اصله حيوان اعجم ارتقى وتحوَّل حتى صار على ما هو عليهِ الآن . واوَّل من ذهب هذا المذهب هم العالمون بطبائع الحي والجماد فكفَّرهم رجال الدين وعارضوهم زمانًا طويلاً ونازلهم عقلاؤهم بالحجَّة والبرهان فتجاروا في ميدان الجدال سنين عديدة واكثروا من البحث والاستقراء حتى سطعت ادلَّة العلماء وبان الحق في مذهبهم فانقاد اليهم جمهور عظيم من رجال الدِّين واعترفوا على رؤوس الاشهاد بان مذهب التحوُّل هو الحق الذي يطابق اعمال الباري في خلقهِ واقوالهُ في كتبهِ[1] . والذين لم يسلموا بصحة هذا المذهب منهم يتذرونهُ قدرهُ ويجلُّون مقام اصحابهِ خلافًا لما يفعلهُ جهلاؤهم وصغار العقول منهم

وهذا الانقلاب العظيم في آراء العلماء والفلاسفة ورجال الدين انما تمَّ بالبحث واقامة الدليل لا بالمهاترة ولا بالمشاغبة . وهاك مناقشة نرويها عن لسان فيلسوف منهم وعالم من

(١) ان مبدار اشهر علماء الكاثوليك واعظم ثقة يستند كبار اللاهوتيين منهم الى اقوالهِ اشهر حديثًا انهُ من الموافقين على صحة الارتقاء والتحوُّل وان ذلك لا يخالف اعتقاد الكنيسة الكاثوليكية ووافقهُ على هذا القول الاخير جماعة من اللاهوتيين . ثم ان جريدة "الغارديان" وهي لسان حال الكنيسة الاسقفية الانكليزية نشرت منذ مدة مقالة ضافية الذيول في صحة مذهب الارتقاء وتحوُّل الانسان عما دونهُ من الحيوان وبانت انهُ هو المذهب المطابق لما في التوراة وان المذهب الشائع عن خلق الانسان مستقلاً عن غيرهِ من الحيوانات مذهب مبنيٌّ على الوهم والخطاء ومخالف لما في التوراة ولما علم بهِ الآباء الاولون

هذا وكثيرًا ما قلنا في سني المقتطف الفائتة ان مذهب التحوُّل لا يخالف الدين ولا ينقض ايمان المؤمنين فأبى بعض من القراء الاَّ رفض قولنا كأن أبى غيرهم من قبلهم قبول قول القائلين ان دوران الارض وثبوت الشمس لا يخالف كتب الدين . فتأمل

علماء الحيوان لتطلع على بحثهم عن الحقائق . قال الفيلسوف ان الانسان منفصل عما دونهُ من الحيوان الاعجم انفصالاً تاماً يمنع امكان تحولهِ عنهُ . وهذا الانفصال قائم بوجود قوًى فيهِ لا توجد في الحيوان الاعجم اصلاً كالوجدان الذي بهِ يدرك الانسان وجودهُ و يعلم انهُ مدرك لذلك وكالطبيعة الادبية الشاملة لجميع الصفات الادبية مثل العفة والامانة والوفاء وما شابه وكالقوى البديهيَّة التي بها يدرك الانسان المبادئ والاوليات وعليها يبني تعقلهُ واستدلالهُ . فبهذه يعرف الانسان ما لهُ من الحقوق وما عليهِ من الواجبات . وبها يسود على غيرهِ من المخلوقات و يتسلط على الطبيعة فيستخدم قواها لقضاء اغراضهِ . واما الحيوان الاعجم فلا يدرك وجودهُ ولا يعرف تسلطاً على نفسهِ واهوائهِ ولا على غيرهِ ولا على الطبيعة وقواها لخلوهِ من اصول القوى البديهيَّة والادبيَّة

فردَّ عليهِ العالم قائلاً . ان حكم الفيلسوف بخلوّ الحيوان الاعجم من الوجدان تحكُّم بلا دليل والذي يراقب طبائع الحيوان الاعجم يحكم انهُ يدرك وجودهُ حق الادراك وما يترتب على ذلك الادراك ايضاً . انظر الى الكلب مثلاً تَرَ من افعالهِ وظواهرهِ انهُ عالم بوجود نفسهِ . اطرح لهُ عظمةً يهشها فتعلم انهُ يدرك حقوقهُ و يدافع عنها . راقبهُ جروًا ابن سنة او سنتين يلعب مع ولد ابن اربع سنوات او خمس تعلم انهما كليهما يشرحان باللعب و يفهم احدهما الآخر . فوجدان احدهما مشابه لوجدان الآخر . وراقبهُ بالغًا يذهب للصيد مع صاحبهِ فتجد انهُ يفهم ما يجب عليهِ فعلهُ و يفعل ذلك الواجب كما يفعلهُ الصيَّاد صاحبهُ فيصيد كما يصيد و يفرح عند الفوز بالطريدة و يغتاظ عند الفشل كما هي الحال مع صاحبهِ فكيف نسلّم ان صاحبهُ ذو وجدان فيعلم بوجودهِ وننكر على الكلب ذلك . نعم ان الكلب لا يستطيع ان يحوّل انتباههُ للبحث عن قوى عقلهِ والنظر في افعالها وان يكتشف الشرائع التي هي خاضعة لها الى غير ذلك من مباحث الفلاسفة وعقلاء الناس ولكن ذلك لا يستطيعهُ الاولاد الصغار ايضاً وربما عجز عنهُ اكثر العامَّة الذين لا يهمُّهم الاَّ ملاحظة ما حولهم ولا يلتفتون الى الكليَّات والبحث عن افعال عقولهم . فعقل الكلب مناسب لحالهِ كما ان عقل الطفل مناسب لحالهِ . ولا يمكن ان يعقل الطفل عقل الفيلسوف الكبير ما لم يخرج عن الطفوليَّة وكذلك لا يعقل الكلب عقل الفيلسوف ما لم يخرج عن الكليَّة . فالتفاوت في العقل بين البالغ والطفل والكلب تفاوت في الدرجة فقط ولا يستدلُّ منهُ على ان عقل الانسان نوع وعقل الكلب نوعٌ آخر او على ان الوجدان خاصٌّ بالانسان دون غيرهِ من الحيوان

واما قول الفيلسوف ان الحيوان الاعجم ناقصُ الطبيعة الادبيَّة فحكمٌ ايضاً اذ قد اشتهر

الكلب بالامانة والوفاء وهما من اجل الصفات . وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة ان الاصناف العليا من الكلاب متصفة باوصاف أخرى ادبية فكلاب نيوفوندلندا التي تتشل الغرقى وكلاب سان برنار التي تنبش الناس من تحت الثلوج متصفة بعزّة النفس فلا يمكن ان تقبل رشوة ولا ان تسرق شيئًا ليس لها وهي تموت حبًا بالوفاء فتبذل حياتها دون وديعة أُودعتها . والحرّاس التي تنبهها اسراب الوحش والطير لتحرسها من قدوم مفاجيء عليها تثبت في اماكنها وتفدي ارواحها دون رفاقها . وتلك صفة من اجل الصفات الادبية

واما قولهُ ان الحيوان الاعجم لا يستطيع ان يتسلّط على نفسهِ واهوائهِ ولا على غيرهِ من المخلوقات فمردود بالمشاهدة ايضًا . فان اناث الوحش والطير تصبر على الجوع والعطش والألم لتطعم صغارها وتسقيها وتجيبها من الاوجاع فلو لم تكن تستطيع ضبط اهوائها وشهواتها ما فعلت ذلك . واسراب الفردة والقبلة وبقر الوحش والوعول والطيور القواطع ونحوها يتسلّط بعضها على بعض ويخضع بعضها لبعض . وكلب الراعي يتسلط على الغنم وقد يسوسها كصاحبهِ وهي تنقاد لهُ انقيادها للراعي . وكلٌ من شاهد سربًا من اسراب الفرود ينهب حقول القمح يحكم بفساد قول النياسوف لا محالة فانهُ متى اتفقت الفردة على نهب حقل من الحقول يتقدمها كبيرها دليلاً فيمشي على رجليهِ منتصبًا ويتعكّز على عصًا بيديهِ وهو يتلفّت يمينًا ويسارًا حذرًا من عدوّ يفاجئها وهي تتبعهُ دابّةً على الاربع متحذرة حتى تصل الى الحقل . ثم يقيم الدليل حراسًا منها على اطراف الحقل فتقف تحرس ولا تمدُّ يدها الى ما امامها وتفترق البقية في الحقل فتعيث فيهِ وتمرح وتاكل حتى تشبع ثم يلتفت كلٌّ منها سلبلتين او ثلاثًا ويحملها للحراس فتاكلها متى رجعت الى مخبإها . فهذه الشواهد — ومثلها كثير — تدلُّ دلالةً واضحة على ان المحاولات تتسلط على انفسها وعلى غيرها ايضًا . وهجوم الفرود على الحقول يشبه هجوم قوم من المتوحشين على املاك غيرهم ونهبهم لها ولا يختلف عنهُ الاَّ بان هجوم المتوحشين يفوقهُ احكامًا وتدبيرًا . ثم ان اقامة الوحش والطير حراسًا تحرسها تدلُّ على امرين احدهما انها تحسب حساب المستقبل وتدبّر لهُ والثاني ان تدبيرها يفي بحاجتها على احسن منوال حتى انهُ يحاكي تدبير البشر . وكلا الامرين يدلُّ على قوة تعقّل واستدلال يغلط من ينكرها عليها

واما قولهُ ان الحيوان الاعجم لا يتسلّط على الطبيعة ولا يستخدم قواها فمردود ايضًا بالمشاهدة فالطائر الذي يبني عشهُ في مكان ظليل يتسلط على الطبيعة وحرّها وبردها كالبنّاء الذي يبني القصور الباذخة . وكل باني وكرٍ وقاطن وجرٍ يعود على الطبيعة في ذلك لانهُ يتخذها لاتمام حاجتهِ وقضاء اغراضهِ . وكل صائد وقانص من الوحش والطير يصيد و يقتنص و يطعم صغارهُ

باستخدام الطبيعة اذ لا تأتي الطرائد عفواً. وكل من راقب افعال الحيوان لا يسعهُ الاَّ الاقرار بانهُ يستخدم الطبيعة على قدر حاجتهِ ايضاً

فردَّ الفيلسوف على العالم قائلاً : ان ما اوردهُ العالم على قولنا لا ننكر صحة المشاهد منهُ ولكننا لا نسلّم بانهُ يدل على وجود ما انكرنا وجودهُ في الحيوان الاعجم . نعم ان الافعال والاوصاف التي اوردها عن العجماوات مشابهة لافعال البشر ولكنها صادرة عن قوى غير القوى التي تصدر افعال البشر عنها . فالافعال التي تفعلها الكلاب وغيرها مما يشبه افعال البشر الصادرة عن الوفاء والعفة والخيبة والامانة او عن العقل والذكاء والتدبير والسلطة ونحو ذلك انما تفعلها بمقتضى الغريزة التي اودعها الباري تعالى في فطرتها . فالكلب يموت في سبيل الوفاء لانهُ مفطور على ذلك ولا يستطيع مخالفتهُ بخلاف الانسان فانهُ يفعلهُ اطاعةً لضميرهِ . والقرود وغيرها يخضع بعضها لبعض ويثبت حراسها في اماكنها لان الباري تعالى فطرها على ذلك فلا تستطيع مخالفتهُ بخلاف البشر فانهم يفعلون تلك الافعال عن نظرٍ وفكرٍ وتدبير . وقس على ذلك سائر افعال الانسان وغيرهِ من الحيوان فان الانسان يفعل طوعاً لحكم عقلهِ وآدابهِ عليهِ والحيوان يفعل طوعاً لغريزةٍ فُطِر عليها . وبين عقل الانسان وغريزة الحيوان فرق جوهري فالعقل مميِّزٌ وحرٌّ مختارٌ في افعالهِ والغريزة عياءٌ لا اختيار لها فالعقل نوعٌ والسليقة نوعٌ آخر ممتازٌ عنهُ تمام الامتياز . ولذلك يبقى حكمنا صحيحاً بانفصال الانسان عن سائر الحيوان انفصالاً تاماً ولو تشابهت افعالهما

فاجاب العالم ان العلماء قد بحثوا عن هذه الغريزة بحثاً طويلاً دقيقاً فوجدوها خلاف ما ذكر الفيلسوف لانهُ قد ثبت معهم بالتجربة والمشاهدة ان الحيوان قد يتعلَّم افعالاً لم يكن يعلمها قبلاً ثم يورثها لاعقابهِ فيُولَد ولدهُ وهو يعلمها بالغريزة بلا علم ولا كسب . وحسبي ان اورد الآن شاهداً واحداً لكي لا اطيل الكلام بتعداد الشواهد وهو ان اناساً شاهدوا طيوراً في بعض الجزائر التي لم يدخلها البشر قبلهم فكانت تقع عليهم ولا تخافهم كأنها ربيت كل زمانها معهم حتى نالها منهم الأذى والردى فخافتهم وابعدت عنهم . ولما أفرخت اذا فراخها تخافهم مثلها فصار خوف البشر غريزياً فيها ولم يكن كذلك في آبائها . فلذلك وامثالهِ ذهب معظم العلماء الى ان غريزيات العجماوات انما هي افعالٌ فعلها آباؤها بعد النظر وطول الاختبار ثم اتصلت اليها بالارث ورسخت في فطرتها على توالي الاعقاب فصارت تولد معها . وعليهِ يبقى ما اوردناهُ من الشواهد حجةً في محلها دالَّةً على قرب الاتصال بين الحيوان الناطق والحيوان الاعجم والله تعالى اعلم